مقدمـــــة ...

من أغرب المفارقات وأكثرها دلالة ، أن أول من اهتم بالكشف عن آثار مصر القديمة كان فرعوناً عظيماً من الأسرة الثامنة عشرة ، فعندما كان (الأمير) تحوتمس الرابع صغيراً جداً ، كان من عادته أن يسرى عن نفسه فوق هضبة (منف) الصحراوية ، متتبعاً الطرق ، مصوباً الأسهم تجاه هدف من النحاس ... وعندما حان وقت الراحة ذهب إلي منطقة (حرماخيس) وهناك كان التمثال الشاهق لمعبود الشمس (حور آختي) ، جلس الأمير ليستريح فى ظل المعبود العظيم ... وهناك رأى حلماً أثناء سباته ، رأي المعبود يقول له «إني أبوك ، معبود الشمس (حورام - آخت - خبري رع - آتون) ... سوف تتوج على عرش المعبود (جب) ، وسوف تخضع لك البلاد فى طولها وعرضها ... عليك أنت أن تحميني ... أنا كالمختنق برمال هذه الصحراء ...» استيقظ الأمير ... وبعد أن أصبح الأمير ملكاً ، أمر برفع الرمال التى تحيط بأبى الهول ، وأمر بنقش قصة الحلم على لوحة بين قدمى أبي الهول .

أما أول حفر أركيولوجي فقد قام به (نابونيدوس) آخر ملوك بابل في منتصف القرن السادس ق. م. بحثاً عن أساس بناء يخص نارام - سين حفيد سرجون .

وكانت أغلب الحفائر الأثرية المبكرة ، تمول لأهداف صليبية دينية من نوع أو آخر ، أو بحثاً عن الكنوز والنفائس القديمة ، وفي بداية القرن الثامن عشر ، حطم المنقبون أجزاء من الهركيولانيوم بعد أن ظلت مطمورة بالرماد البركاني حوالي ١٥٠٠ سنة ، بحثاً عن الأشياء الثمينة .

وقد بدأ الاهتمام بمصر القديمة ، في العصور الحديثة بعد حملة نابليون علي مصر عام ١٧٩٨ وكانت الحملة تضم علماء من كل التخصصات ، قاموا بدراسة الآثار والجغرافيا والحياة الحيوانية والنباتية ، ولكن الفرنسيين تركوا كل ما جمعوه .

وفي خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، افتتحت أقسام الآثار المصرية في الجامعات والمعاهد والمتاحف العالمية ، وتكونت جمعيات خاصة بدراسة الآثار المصرية ، لعل أهمها جمعية الكشوف الآثرية المصرية بلندن ، والبعثة الآثرية الفرنسية بالقاهرة ، وجمعية الشرق الألمانية ، وبذلت جهود حقيقية في البحث عن الآثار وتجسيلها في كتالوجات المتاحف وصدرت دوريات علمية خاصة بالبحوث المصرية القديمة ، وألفت آلاف الكتب وعشرات الالاف من المقالات وتقارير الحفائر .

أصبح لعلم الدراسات المصرية القديمة تخصصات ومجالات عديدة منها الببلوجرافيا ، والجغرافيا القديمة وتشعبت تخصصات تاريخ مصر القديمة إلى عصور ما قبل التاريخ، وعصور الأسرات وفترات الانتقال الغامضة، وعصور الغزوات الأجنبية ،

وأصبح من العلماء من يكتب عن فترة مملكة أو أسرة معينة أو ملك معين ، أو بعض أوجه نشاطه ، وظهرت دراسات وتخصصات في الديانة المصرية القديمة ونظم الحكم والإدارة ، والحياة الفكرية واللغة والكتابة ونصوصها وخطوطها ، والفنون المختلفة من نحت وعمارة ورسم وموسيقى ، والرياضة البدنية والترفيه والعلاقات الدولية وتبادل التجارة .

وقد أثر التقدم المدهش في العلوم الحديثة علي أنماط دراسة البيئة القديمة في مصر ، مثل دراسة جيولوجيا أرض مصر ، وخاماتها ، ونباتاتها وحيواناتها وطيورها وحشراتها وأنماط الغذاء ، والسكن والملبس ، والممارسات الطبية ، وتأثير النظم والتغيرات الاقتصادية ، على أساليب الحياة اليومية ، كما قدمت التقنيات الحديثة أساليب جديدة سهلت دراسة أنماط الزراعة واستئناس الحيوانات ، والتغيرات المناخية، وتأثير كل ذلك علي حياة البشر ، وصحتهم ومرضهم وبنيانهم الجسماني ، ومتوسط أعمارهم عند الموت ، وأسباب الموت ، وتغيرت اهتمامات الأركيولوجيين ، بتغيير الوسائل والأدوات والتقنيات المتاحة لهم ، فهم ليسوا في عزلة عن النظم المعرفية التي تتدفق في السنوات الحالية ، وأصبح عملهم أكبر بكثير من مجرد تنظيف وتبطيق الأواني والشظايا الفخارية ، أو جمع وصيانة وحفظ المواد الأثرية الصغيرة أو الكبيرة ، توطئة لعرضها في المتاحف ، لقد انطلق الأثريون من مراحل التعويم والنخل بحثاً عن البذور والخرز ، إلي مراحل أدق وأعمق ، لجمع البيانات البيولوچية ، وكشفت عدسات الميكروسكوبات القوية عن تفاصيل رائعة ، حتي فى البقايا العضوية التي تآكلت أو تحللت أو طبخت ، وكانت التراكيب تحت الخلوية تبدو واضحة في حالات كثيرة ، واستخدم علماء الأركيولوجيا هذه التفاصيل في إعادة بناء البيئة وظروف الحياة ووسائل إنتاج الطعام وتجهيزه .

وفي ثمانينات القرن العشرين كانت الأركيولوچيا الحيوية قد بلغت الفطام ، كمنهج أركيولوجي روتيني ، وفتح باب آخر للسجل الأركيولوجي يمكن أن يكشف عن الكثير ، فها هي مرحلة دراسة الجزئيات تطل برأسها . وتضم هذه الجزئيات المواد الدهنية والكربوهيدرات التي تزود الكائن الحي بالطاقة ، والبروتينات التي تبني الأنسجة الحية وتنظم الآليات البيولوچية ، والجزئيات التي تشفر لكل هذه التعليمات : جزئيات الـ (د ن ا) في قلب كل خلية . وامتدت جسوراً جديدة وبسرعة بين أفرع أكاديمية لم يسبق أن كان بينها من قبل صلة تذكر . بدأ الاتصال بين الأركيولوجيين والجيوكيميائيين ، وعلماء البيولوجيا الجزيئية ، ومؤرخي ما قبل التاريخ ، وعلماء الحيوان والنبات والحشرات ، وعلماء العظام والطب الشرعي ، وعلماء التغذية والبائولوجيا القديمة ، والوبائيات القديمة ، والباحثين فى الصبغات

المناعية ، والكيميائية العضوية ، والميكروسكوبات الضوئية والإلكترونية ، والنظائر المشعة ، وخبراء قواعد البيانات وتكنولوجيا المعلومات ... وغيرهم .

في خلال بضع سنين ، وبعد أن أصبحت الأركيولوجيا البيولوجية ، والبيوجزيئية واقعاً ، أعيدت كتابة الكثير من القصص حول ماضي البشر ، وفي مقدمتهم المصريون القدماء .

لهذا كان هذا الكتاب .

صالح بدير